مفهوم التأويل الفلسفي ومرتكزاته
في فلسفة هانز جيورج غدامير
Hans George Gadamer

د.عبد العزيز بوالشعير
المدرسة العليا للأساتذة قسنطينة

مصطلح الهيرمينوطيقا في الأصل مصطلح مدرسي لاهوتي، يطلق على ذلك العلم الذي يحكم عملية تفسير الكتاب المقدس scripture أو النصوص الدينية exégèses، التي قد تتطلب فهما وتفسيرا بسبب غموض معناها الذي نشعر إزاءه بالاغتراب إلى أن يصير هذا معنى مقبولا ومنسجما مع العقائد الإيمانية، لكن الهرمينوطيقا الآن اتسع مجالها بحيث صار يشمل كل ظاهرة يتطلب معناها تفسيرا، بغرض تجاوز حالة الاغتراب، إذ أصبح العامل الهرمينوطيقي يتكفل بردم الهوة بين العالم المألوف الذي نعيش فيه والمعنى الغريب الذي يرفض أن يستوعب في آفاق عالمنا، كما يرى الفلاسفة المعاصرون.

انطلاقا من اللحظة المعاشة للفرد، وفي سياقه التاريخي الذي يحيا فيه، يمارس هذا الفرد عملية الفهم، فهم الحقيقة باعتبارها تنتمي إلى العالم المعاش للفرد، وعلى أساس من فهم الوجود يعطي الفيلسوف الألماني المعاصر"هانس جيورج غادامير(1900.2002 Hans Geoge Gadamer) بعدا فلسفيا انطولوجيا لعملية الفهم، هذا الأخير يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا بما في المفسّر ومستقبله، بمعنى أنه محكوم بزمانيته، لأن نقطة الانطلاق الجوهرية لعملية التأويل هي كون الهرمينوطيقا نشاطا كليا عاما.والفهم لأول مرة يعد مشكلة أساسية وعامة أيضا، ومن خلال عملية التفسير تكشف لنا الهرمينوطيقا عن نهائية الفهم الإنساني، هذا الأخير لا يقدر على بلوغ حد اليقين والاكتمال. فالفهم يبقى دائما فهما مفتوحا أو هو تحسين متواصل لمعرفتنا بالعالم بقول غدامير.فنحن نتعرف على تناهي الفهم الإنساني كما يعتقد غدامير، من خلال تعدد التفسيرات واختلافها وتواصلها تبعا لتنوع السياق الثقافي التاريخي الذي يوجد فيه المفسر، لأن الفهم يبدأ بالتفسير وينتهي إليه، وهو ـأي الفهمـ يمثل بذلك موضوع التفسير وغايته. يعتقد غدامير أن المجال الهرمينوطيقي لا يمكن أن يبقى محدود في نطاق العلوم الهرمينوطيقية الخاصة بالفن والتاريخ ولا حتى في نطاق التعامل مع النصوص، ولا كذلك في مجال خبرة الفن ذاتها.

مهمة الهرمينوطيقا في نظر غدامير هي الوصول إلى لغة مشتركة، بمعنى الوصول إلى اتفاق، ومن ثم إلى فهم، حتى يصل الاتفاق بين الموجودات العاقلة، إنه من الممكن أن نحقق قدرا من الموضوعية بفعل فاعلية ووظيفة الهرمينوطيقا طالما أنها تسعى إلى تحقيق نوع من الفهم أو الاتفاق، لكن الموضوعية الناجحة عن وظيفة الهرمينوطيقا هي تلك التي لا تلغي تماما الدور الفعال للمفسر في عملية الفهم من خلال التساؤلات والتوقعات التي

يطرحها.ويسمى فلسفته بالهرمينوطيقا الفلسفية أو التأويل الفلسفي Philosophical hermeneutic، هرمينوطيقا لم تنشأ كمذهب فلسفي، ولا كنظرية فلسفية في مجال من مجالات التفلسف، وإنما نشأت بوصفها أسلوبا في التفكير متحررا من شتى النزعات المذهبية ومضادا لكل النزعات التعالمية والدوجماطقية اليقينية التي تدّعي وجود الحقيقة الموضوعية، فالحقيقة تظل في اعتقاده دوما حقيقة إنسانية أي تظل حقيقة بالنسبة لنا Truth for us وليست حقيقة في ذاتها Turth-as-such.

-فما مفهوم التأويل لدى الفلاسفة وخاصة عند جيورج غدامير ؟. وما هي أهم مرتكزاته بنظر غدامير؟ - وما الذي يميز هذه الأسس عن أسس التأويل لدى سابقيه من الفلاسفة من أمثال، دلتاي، وشلاير ماخر، وهيدجر ؟

إشكالية مفهوم التأويل:

تعني كلمة هرمينوطيقا Herméneutique "علم أو فن التأويل".وإذا شئنا استخدام عبارة دقيقة، قلنا أنها تعني"فن امتلاك كل الشروط الضرورية للفهم"كما يذهب إلى ذلك شلاير ماخرSchleier Macher، حيث يرجع استخدام هذا المصطلح للدلالة على هذا المعنى إلى عام 1654.[1] أما المدرسة التأويلية، فهي تعود حسب المؤرخين إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير، إذا أرجع بعض المؤرخين أصولها إلى "المجهودات التي بذلها الأثينيون في العصر الكلاسيكي من أجل استخراج معنى الملاحم الهوميرية التي أصبحت لغتها تتمنع عن الفهم المباشر"[2] . وفي المقابل يذهب جيورج غوسدورف Georges Gusdorf إلى أن

1-نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي.ط 3، 1994، الدار البيضاء، ص13..

2. Peter Szondi, « l'herméneutique de Schleiermacher, in poétique », 1970. p 141

المدرسة التأويلية تعود أصولها إلى عشرات القرون، وأنها بدأت في الإسكندرية، ثم استرجعت في عهد النهضة والإصلاح، لكي تزدهر بعد ذلك في عصر الأنوار وعصر الرومانسية، وهي في نظره ذات أصول دينية محضة، وقد أملتها الحاجة إلى تأويل الكتاب المقدس (الإنجيل)الذي لم يعد فهمه المباشر ممكنا، ولهذا يعود انتشار الهرمينوطيقا بشكل كبير إلى ازدهار البروتستانتية في عصر النهضة.[1]

يعتقد الكثير من المؤرخين أن الهرمينوطيقا ظلت في مراحلها الأولى مقتصرة على تفسير النصوص، موظفة بذلك فقه اللغة؛ لقد كانت مهمتها تكمن في "توضيح الغموض ورفع اللبس اللذين يسببها قدم كل مخطوط". إن الهرمينوطيقي L'herméneute مترجم يجعل بفضل معارفه اللسانية، الغامض قابلا للفهم، وذلك باستبدال الكلمة التي لم تعد مفهومة بكلمة أخرى تنتهي إلى الحالة اللغوية الخاصة بالقارئ الذي يترجم له هذا الهرمينوطيقي، ولكن عملية الكشف عن المعنى الحرفي Le sens littérale وتحديده، كانت تصاحبها عملية البحث عن المعنى المجازيLe sens allégorique الذي يكمل المعنى الحرفي ويتجاوزه، وهكذا يشترك التأويل اللغوي أو النحويL'interprétation grammaticale الذي يركز على معاني الكلمات) والتأويل المجازي في هذه الإرادة في تجاوز أو ردم الهوة التي حفرها التاريخ.[2] والحقيقة أن مفهوم "الهرمينوطيقا"ينطوي

---

[1]-عبد الكريم شرفي:من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة "دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة".الدار العربية للعلوم بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر 2007، ص.ص.17.18.

[2]-المرجع نفسه، ص24.

جملة مفاهيم "فرعية"أو"مقابلة"تشير إلى أصناف مختلفة من العمليات التأويلية الممارسة علة النصوص، كالفهم والتفسير والشرح والتأويل والترجمة والتطبيق.

La compréhension, L'exégèse, L'epéxegèse, L'explication, La tradition, L'interprétation, L'application.

غير أن هذه الفعاليات الهرمينوطيقية نجدها أحيانا مختلفة ومتمايزة وأحيانا متطابقة ومتماثلة وأحيانا أخرى متداخلة ومتكاملة.[1] فإذا جئنا مثلا إلى"شلايرماخر"وجدناه يقصي التأويل ويضع الفهم في صلب الممارسة الهرمينوطيقية، لأن التأويل في اعتقاده يبحث فقط عن المعنى الحرفي أو المجازي، في حين أن المطلوب هو"فهم"خطاب الآخر في غيرته، أي في تفرده، غير أن تصور"فلهالم دلتاي Wilhelm Dilthey"مغاير تماما لتصور "شلايرماخر" هذا .فقد جعل "دلتاي""التأويل" شكلا خاصا من أشكال "الفهم" وحالة جزئية منه، كما أنه يميز بينهما وبين "التفسير" تمييزا كاملا بحيث يناقض كل طرف منهما الآخر ويستبعده كلية، فالتفسير في نظر"دلتاي" هو المنهج العلمي الذي تتميز به المدارس والعلوم الوضعية، في حين يشكل الفهم أو"التأويل" المنهج العلمي المناسب لحقل الفكر والعلوم الإنسانية.فالعالم الطبيعي"يفسر"مادته، أما مادة علوم الفكر فهي في حاجة إلى"فهم"أو"تأويل"، ولا يمكن إطلاقا لأي منهج من المنهجين أن يطبق على الحقل المقابل[2].

لكن محاولة بول ريكور Paul Ricœur جاءت على العكس من"دلتاي".لقد حاول "ريكور "التقليل من حدة التناقض والتعارض بين مقولتي التفسير

---

[1]-عبد الكريم شرفي:من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص18.

[2] بول ريكور:"النص التأويل". ترجمة. منصف عبد الحق، مجلة العرب والفكر العالمي. العدد 3، 1988، ص5.

والتأويل، باحثا عن التكامل المتبادل بينهما، فقد أشار في هذا السياق إلى أن مفهوم التفسير"قد خضع لتحويل أساسي نقله من مجاله الأصلي الذي وضعه فيه "دلتاي" إلى مجال جديد، فلم يعد مقتبسا أصلا من علوم الطبيعة؛ ولكن من النماذج اللسانية الخالصة.[1].في رأي "ريكور نحن" نفسر" النص أولا، وذلك عندما ندرس علاقاته الداخلية ونحدد بنياته الخاصة.ثم بعد ذلك "نؤوله" .بحيث نمنح لهذه العلاقات والبنيات دلالة معينة، وهو ما دفعه إلى الاعتداد بالإنجازات التي حققتها البنيوية عندما وفرت الأسس المنهجية العلمية المناسبة لتحليل مكونات النص الداخلية. فنحن مطالبون عندما نفسر هذه النصوص بأن نعطي دلالة ما لهذه النتائج التفسيرية بمعنى علينا أن نؤولها، وإلا كانت عديمة الجدوى، وانطلاقا من هذا يجد التفسير تتمته في التأويل ويجد التأويل أساسه العلمي ومرتكزه الموضوعي في التفسير.[2] بناء على هذا التمييز يكتسب التفسير سمة موضوعية ويبدو " التأويل " وكأنه مهدّد بالأحكام والتوجهات الذاتية، من هنا كانت البنيوية التي سادت في الستينات تميز بصرامة بين علم " الأشكال الفارغة" و" النقد الذاتي".في حين كانت الهرمينوطيقا من وجهة نظر البنيوية مقاربة لا يمكن التفكير فيها حتى مجرد التفكير .

أما هيدغر فينظر إلى " الفهم " باعتباره مكوّنا لكينونة الكائن، وباعتباره كيفية أساسية لوجوده ولمقاربته للعالم ولذاته، وقد كانت رؤية هيدغرHeidegger للتأويل مبنية على الفينومينولوجية؛ فكانت فينومينولوجيته هرمينوطيقية في الأساس، لأنها تحاول تأويل الإنسان والعالم معا، بمعنى فهم الكينونة - في .

---

[1]-المرجع نفسه.ص36.

[2]-المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

العالم، ويعتبر هيدغر الهرمينوطيقا اسما آخر للفينومينولوجيا أو لتأويل الدّازاين Dascin، ويقول أن الهرمينوطيقا هي الفينومينولوجيا بكل أبعادها الأصلية[1].فهناك إذن نوع من التداخل والتكامل بين الهرمينوطيقا والفينومينولوجيا لاهتمامهما معا بظاهرة الفهم والإدراك .

يذهب بول ريكور في كتابه " صراع التأويلات " إلى المطابقة بين مفهومي الهرمينوطيقا والتأويل، إلا أنه يحرص على إعطاء مفهوم الهرمينوطيقا نوعا من " الشمولية" مقارنة بمفهوم التأويل، ذلك أن التأويل في اعتقاده يرتبط بالتفسير النصي المباشر في معناه الدقيق، أما الهرمينوطيقا فإنها تحرك المسألة العامة للفهم ما المعنى الواسع لفهم العلامات أيا كانت هذه العلامات أو أيا كان الخطاب الذي تشكله. ومن هنا يكون التأويل المهتم بالمسائل التقنية للتفسير النصي الملموس حالة جزئية من" الفهم"الذي يثير المسائل الأعم للدلالة واللغة[2]. ومن زاوية أخرى ينصّب ريكور الهرمينوطيقا الفلسفية "حكما "بين التأويلات المتصارعة، لكونها تستطيع باعتبارها " فلسفة تحليلية "أن تمنحها تصورا أكثر تعقيدا وتعمقا عن العلامات واستعمال هذه العلامات ودلالاتها الممكنة. [3]

ويأخذ التأويل لدى "هانس جيورج غدامير" بعدا فلسفيا مغايرا تماما لتصور شلايرماخر، ودلتاي، وهيدغر، وريكور، وإن كان يستند إليهم في كثير من تحليلاته، فالممارسة التأويلية في نظره، فيها ثلاث مراحل : الفهم والتفسير أو

---

[1]-نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل.ص 31.

[2]Paul Ricœur : « *Le conflit des interprétations, essais d'herméneutiques* », Seuil paris,1969.p.8.

[3] Eric Clémens, « *Volonté d'interprétation, in critique* ». 277.(1970).p 147-148

التأويل interprétation والتطبيق application .كل مرحلة من هذه المراحل تشكل جزءا لا يتجزأ من العملية التأويلية، فلا يمكن وجود أي تفسير دون فهم، فنحن نفسر أولا وأخيرا ما نكون قد فهمناه.ولهذا يكون التشابك وثيقا بين التفسير والفهم، بل إنهما في النهاية شيء واحد.ينظر غدامير إلى التأويل أو التفسير باعتباره "الموضوعية" أو" المنطقية "التي تمنح الفهم وجوده الملموس، إنه (أي التفسير) الشكل الخارجي للفهم، ويمكن أن يكون هذا الشكل لغويا كما يمكن أن يكون غير ذلك. كأن يكون لوحة فنية يتجلى فيها فهم الفنان للوحة أخرى، أو أداة لقطعة موسيقية، إذ أن طريقة الأداء تعبر عن فهم معين، ولكن علاقة الشكل بالمحتوى يجب أن تفهم بمعناها الحديث أي أنهما متداخلان وليس أي منهما سابقا على الآخر، بل كل منهما متضمن بالقوة في الآخر وهما متشابكان بشكل لا انفصال فيه.[1]

أن غدامير لا يفهم التفسير كما فهمه ريكور، بمعنى تفسير للبنيات والصيغ الأساسية للعمل الأدبي، بل ينظر إلى التفسير باعتباره وسيطا لغويا أو غير لغوي تتحقق بواسطته إمكانية الفهم والتفسير ليس إلا ذلك الشكل اللغوي الذي يعبر عن الفهم أو يتجلى فيه الفهم. وبعبارة أخرى فإنه ليس مستقلا عن الفهم أو سابقا عليه، وبالإضافة إلى ذلك، في كل ممارسة تأويلية يوجد تطبيق ما فمن جهة هناك تطبيق لأفكارنا ومعاييرنا على النص ومن جهة أخرى هناك تطبيق لمقولات النص ومعايره الخاصة على معاييرنا نحن، أي هناك ترجمة للنص وتطبيق له في حياتنا العملية والواقعية وتتجلى هذه الحقيقة بامتياز في علم

---

[1]- هانز جيورج غدامير:« اللغة كوسط للتجربة التأويلية» ، ترجمة أمال أبي سليمان، مجلة العرب والفكر العالمي.العدد 3، (1988).ص280.

التأويل اللاهوتي وعلم التأويل القانوني فالأول ينتهي إلى تحقيق تعاليم الوحي في الحياة اليومية والثانية ينتهي إلى تطبيق القانون فعليا أو عمليا على حالة معينة وكلا النتيجتين " تطبيق " النص من خلال فهمه وتفسيره.[1]

استطاع غدامير أن يلقي الضوء على خاصية جوهرية في الممارسة التأويلية، التيهي " تطبيق للنص " أو ضمن الوضع الراهن للشّارح أو المفسّر، وسوف يكون هذا التطبيق بالضرورة نتيجة للتفاعل بين أفق النص والأفق الراهن للمفسّر، وسوف يؤثر بالضرورة على ذات المفسّر في مفاهيمه وفي واقعه اليومي .[2] ويذهب "ياوس jauss" في كتابه " علم التأويل الأدبي حدوده ومهماته" إلى الإشارة بأن المراحل الثلاث التي تحدث عنها غدامير يمكن أن تشكل وحدة وأنه ينبغي علينا أخذها بعين الاعتبار، في الوقت الذي كان فيه المؤولون يركزون على المرحلة الثانية، متخذين من مقولة التفسير أو التأويل أساسا لهم ثم يضيف قائلا أن هذه الوحدة بين الفهم والتفسير والتطبيق التي أسست علم التأويل تحققت ضمنيا منذ الممارسة القديمة لفن التفسير وليس فقط منذ عصر الأنوار.[3] ثم إن التطبيق يظهر هنا باعتباره التتمة المنطقية والطبيعية للفهم والتفسير كما يظهر باعتباره الوضعية الملموسة التي تربط بين النص والحاضر، والتي تسمح لنا من ثم بفهم تاريخ تفسيرات نص معين باعتباره هذا التقاطع المستمر بين آفاق الماضي والحاضر، وهذا ما يمكننا من تجاوز الفهم

---

[1]- هانس روبرت ياوس:« علم التأويل الأدبي حدوده ومهماته » ، ترجمة بسام بركة مجلة العرب والفكر العالمي، 3،(1988)، ص 55، 57.

[2]-عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة.ص.22.

[3]-هانس روبرت ياوس:علم التأويل الأدبي حدوده ومهماته.ص.ص.56.55.

"التاريخي" الذي يحيل بنوع من الموضوعية المدعاة إلى الحدث الماضي وحده، أي في استقلال عن اللحظة الراهنة التي تفسّره وتتبادل معه التأثير، وهو الذي يسمح لنا بتأسيس الفهم على مفهوم التفعيل والتحقيق بعد أن كان يتأسّس على مقولة المعنى للازمني أو اللاتاريخي الذي كان يمنح لنصوص الماضي.[1]

من هنا يتبين لنا الاختلاف الحاصل في تصور غدامير للهرمينوطيقا عن تصور الفلاسفة السابقين أمثال شلاير ماخر ودلتاي واسبينوزا Spinoza وغيرهم. فإذا كانت الهرمينوطيقا اتخذت مع هيدغر بعدا فينومينولوجيا أو انطولوجيا، أين أرسى هيدغر دعائم الهرمينوطيقا الفينومينولوجية باعتبارها كشفا عن الحقيقة أو معنى ظواهر الوجود الإنساني hermeneutics of dasein. فلأن حقيقة أو معنى الظاهرة لا يكون معطى لنا بصورة مباشرة أو جاهزة، فإنها بالتالي تحتاج إلى تفسير، أي إلى نشاط هرمينوطيقي. يكون التفسير هنا بمعنى السماح للحقيقة بأن تحدث أو تتكشّف من خلال التحجّب والتخفّي، والمفسّر يتيح للحقيقة أن تتكشّف على ذلك النحو حينما يمارس عملية الفهم، فهم الحقيقة باعتبارها تنتمي إلى عالمه المعاش وإلى سياقه التاريخي الذي يحيا فيه حينما يلتزم بالبعد الأنطولوجي لعملية الفهم الذي كان بمثابة نقطة تحول رئيسية في الهرمينوطيقا وامتد تأثيرها بقوة إلى غدامير.ورغم أن الهرمينوطيقا الفلسفية لدى غدامير المتأصلة في الهرمينوطيقا الفينومينولوجية قد تجاوزت الهرمينوطيقا الكلاسيكية لدى شلاير ماخر ودلتاي إلى حد كبير، فإن غدامير يتخذ نقطة انطلاقه من استبصار أصيل لدى شلاير ماخر، إنه يرى الهرمينوطيقا بوصفها نشاطا كليا عاما

---

[1]-المرجع نفسه.ص 58.

يجعل من الفهم لأوّل مرّة مشكلة أساسية وعامة معا بالضرورة، وتبدع أساسا نظريا عاما للهرمينوطيقا.[1]

هرمينوطيقا غدامير تنكر فكرة الحقيقة المطلقة وذلك النوع من اليقين، كما تنكر مصادرة المنهج الذي وفقا له تتأسس الحقيقة على نوع من اليقين الذي لا يقبل الجدل، وعلى نحو مكتمل من خلال تقدم منهجي، فالمنهج ليس هو الوسيلة الوحيدة للاقتراب من الحقيقة كما أن الحقيقة بدورها ليست مطلقة بيقينية مكفولة الضمان من خلال أدوات المنهج كما لو كانت الحقيقة كنزا يكون العثور عليه مضمونا من خلال خطة مرسومة على نحو ما وقع في ظن ديكارت حينما كان يصوغ قواعده لهداية العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم.[2]

لقد كان غدامير في كتابه "الحقيقة والمنهج "يسعى إلى التأكيد على إجراءين جوهريين :

- ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي الذي وسمتها به رومانطيقية دلتاي وشلاير ماخر، وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلف وروح العصر الذي ينتمي إليه.

- ضرورة تحويل الاهتمام إلى عملية الفهم في حد ذاتها في حيثياتها الخفية وفي بعدها التاريخي وهو المبدأ الذي يختلف تماما عن تصور شلاير ماخر الذي ركز على وضع القواعد والمعايير التي تعصمنا من سوء الفهم.ذلك أن نقطة البدء فيما يرى غدامير " ليست ما يجب أن نفعل أو نتجنب في عملية الفهم

1- التأويل والحقيقة والتاريخ، مقاربات هرمنيوطيقية www.jehat.com/or/04/10/2005

2- المرجع نفسه

بل الأحرى الاهتمام بما يحدث بالفعل في هذه العملية ".[1] ولهذا يعطي غدامير للتأويل مفهوما خاصا ودفعا جديدا متميزا عن سابقيه ومختلفا عن معاصريه. لقد حرّر غدامير التأويل كمفهوم من الكثير مما اكتنفه من غموض ولبس، وربطه بشروط تاريخية لا تفصل بين النص ذاته والشروط التاريخية للمؤوّل أو لواضع النص.فكل تأويل يبقى دائما مشروطا بالوضعية التاريخية التي ينتمي إليها ويكون في المقابل متعلقا بواقع النص ذاته. فمهما كانت الشروط التاريخية التي تحكم فهمنا أو تأويلنا فلا يمكنه في الأصل أن يمتلك أي وجود مستقل عن هذا النص ولا يمكنه أيضا أن يكون إنتاجا جديدا لنص آخر مقابل النص الأصلي، ذلك أن ما نتوخّى فهمه هو النص بذاته وما نودّ تحقيقه هو معناه العميق أو على الأقل أحد معانيه الممكنة، وهذا المعنى هو الشيء المشترك الذي يوحد الطرفين أي النص والمفسّر.[2]

مرتكزات التأويل الفلسفي

إن الحقل المعرفي الذي يشتغل عليه التأويل هو فحص النصوص داخليا وربطها بسياقها العام الخارجي، ويطمح فن التأويل في تصور غدامير إلى بلوغ درجة العالمية بحكم أنه يتجاوز التصوير الكلاسيكي لفهم النصوص ومستويات الحقيقة التي تتضمنها إلى فهم الظواهر الاجتماعية والسلوكيات الفردية

---

[1]-نصر حامد أبو زيد:« الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص » ، مجلة فصول، 3،مجلد1، (1981)،ص.153.

[2]-هانس جيورج غدامير:اللغة كوسط للتجربة التأويلية.ص.23

والأحداث التاريخية والإبداعات الفنية والجمالية[1]، عكس الهرمينوطيقا التقليدية التي كانت تهتم برفع اللّبس وتحديد المعنى الحرفي والكشف عن المعاني المجازية، فهي في تبعية للعلوم الأخرى، مجالاتها جزئية، تقتسمها الدراسات الفيلولوجية للنصوص الكلاسيكية واليونانية والأثينية على وجه الخصوص، والتفاسير اللاهوتية وخصوصا تفاسير العهدين القديم والجديد.تنتقل الهرمينيوطيقا مع شلاير ماخر إلى نظرية عامة في الفهم والتأويل قائمة بذاتها، الذي أكد على ضرورة تحول مركز اهتمام الهرمينوطيقا من تعقب المعاني والمضامين الفكرية المتعددة بتعدد النصوص، إلى تناول العملية المركزية التي توحّد مختلف التأويلات، أي إلى فعل التأويل ذاته أو عملية الفهم ذاته، حيث حرص شلايرماخر على وضع القوانين والمعايير الضرورية للفهم "الصحيح".[2]

غير أن مسعى غدامير في تأسيسه لفن التأويل يختلف عن المساعي التي بذلها شلاير ماخر، أو دلتاي، أو حتى هيدغر، فهو يؤكّد على ضرورة تجاوز المناهج لتحليل عملية الفهم نفسها في فعاليتها وملابساتها التاريخية، طالما أن كل المناهج بما في ذلك العملية منها، تتأسس في العمق على التفكير التأويلي[3]. ويبني مشروعه الهرمينوطيقي على تصوره الخاص لعلاقة الفن بالعالم أو الواقع، إذ أن الأعمال الفنية، لم تبدع لأعراض جمالية خالصة، بل كان قصد منشئيها أن تتلقى على أساس ما تقوله أو تمثله من معان، وهو ما جعل غدامير يمنح الشكل

---

[1]- محمد شوقي الزين:تأويلات وتفكيكات.فصول الفكر الغربي المعاصر، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، بيروت،(2002)، ص.33.

[2]-عبد الكريم شرفي:من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة .ص ص 27، 31.

[3]- هانس جورج غدامير:« فن الخطابة وتأويل النص ونقد الإيديولوجيا » :ترجمة، نخلة فريفر، مجلة العرب والفكر العالمي، 3. (1988).

الجمالي، ومن ثم الوعي الجمالي الذي يركز اهتمامه على هذا الشكل، مكانة ثانوية مقارنة بالمكانة التي تحتلها الحقيقة التي تنبع من العمل الفني نفسه.إن أي عمل فني على وجه العموم لا يهدف في نظر غدامير إلى تحقيق المتعة الجمالية فحسب، بل يظهر وبدرجة أساسية باعتباره"حاملا للمعرفة"وينجم عن هذا التصوير أن عملية الفهم لن تكون مجرد متعة جمالية خالصة، بل ستقوم على نوع من المشاركة في المعرفة التي يحملها النص، وعندما سيكون النص مستقلا عن مبدعه ويمتلك موضوعيته ويصبح وسيطا، له ثباته الدائم وقوانينه الخاصة، وهذا الوسيط الموضوعي والمحايد إلى حد كبير هو الذي يجعل عملية الفهم ممكنة ومتكرّرة ومفتوحة للأجيال اللاحقة.[1]

يعتقد غدامير أن النص يستقل بفعل الكتابة عن كل العناصر النفسانية التي يتولّد عنها، ويصير حاملا لحقيقته، ولتجربته المعرفية الخاصة التي يفصح عنها من خلال شكله الموضوعي الثابت، عندها لن يكون من الضروري أن نفهم النص كتعبير عن حياة المؤلّف وعواطفه، بل يجب علينا، أن نحاول فهم ما يقوله النص في حد ذاته.لم يعد النص يفهم بما هو تعبير عن حياته، بل بما يقوله حقا.لم تعد عملية الفهم كما كانت لدى شلاير ماخر ودلتاي، تقوم على تحويل الذات الغير أو أن نعيش من جديد ما كان الآخر قد عاشه، بل تقوم على التفاهم L'entente et l'accord حول الشيء المقصود نفسه:أن نفهم يعني: "أن نغير اهتمامنا لما يقوله الآخر، وأن نعطي وجهات نظره حقها، بمعنى أن نسعى إلى فهم ما يقال، لا إلى فهمه هو، باعتباره هذه الفردية، فما يهم إدراكه هو حق الشيء

---

[1]- هانس جيورج غدامير:اللغة كوسيط للتجربة التأويلية.ص28.

نفسه الذي يقصده بحيث نتمكن من الاتفاق على الشيء بذاته، من هنا، لا نرد رأيه إليه هو كفرد، بل إلى ما يهدف إليه رأيه بالذات.[1]

يتبين لنا كيف أن غدامير يعارض إقرار الممارسة التأويلية لمقولتي الحياة الذاتية للمؤلّف والقارئ الأصلي، مؤكدا في مقابل ذلك أن فعل الكتابة يفصل النص عن عريضة أصله ومبدعه.معتبرا أن الإحالة إلى القارئ الأصلي تماما كما الإحالة إلى المعنى الذي يقصده المؤلّف، ليست إلا قاعدة تأويلية وتاريخية بدائية جدا.ومن هنا يصوغ غدامير أول قاعدة له في النظرية الهرمينوطيقية المعاصرة وهي"ليس الفهم عملية نقل نفساني، ولا يمكن لأفق معنى الفهم أن يحد لا بما كان يقصده المؤلّف، ولا بأفق المرسل إليه الذي كتب النص أساسا من أجله". [2] ويضيف غدامير قاعدة ثانية، مفادها أن المعنى ليس شيئا ينتمي إلى الماضي المطلق بحيث يكون بإمكاننا استخلاصه كما هو دون عناء، وبموضوعية خالصة مستقلة عن وضعيتنا التاريخية الراهنة بكل معاييرها ومفاهيمها المسبقة الخاصة، بل على العكس من ذلك، فكل تأويل مرتبط بوضعية ما، وتشكله وتحدده لمعايير النسبية تاريخيا في ثقافة محددة[3].إن المؤوّل لا يمكنه أبدا أن يضع ذاته جانبا وهو يحاول فهم النص وتأويله، وهذه الاستحالة هي ما يجعل المعنى ناتجا لمشاركة المؤوّل وتدخله الخاص في عملية الفهم.إن النص المكتوب على وجه العموم يجعل الماضي معاصرا دائما للحاضر، أما فهمه فلا يعني العودة إلى الحياة الماضية أو تكرار شيء مضى، بل يعني

---

[1]- هانس جيورج غدامير:اللغة كوسيط للتجربة التأويلية ص.26- 27.

[2]-المرجع نفسه.ص ص.28- 29.

[3]- تيري إيغلتون:نظرية الأدب: ترجمة ثائر ديب. منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية (د.ط).دمشق،1995 ،ص.126.

المشاركة في معنى الحاضر، وهو المشاركة التي تكشف عن الصلة القائمة بين النص والمجموع، الأهداف والغايات التي تتحرك ضمنها ومجموع المعايير والمفاهيم المسبقة التي توجه فهمنا.[1]

وتبني الممارسة التأويلية لدى غدامير على جملة مرتكزات، ضمنها في كتابه"فلسفة التأويل، الأصول، المبادئ، الأهداف"، فما هي مرتكزات فن التأويل لديه؟ وما الذي يميز ها عن غيره من فلاسفة الهرمينوطيقا؟

1- الذاتي – الموضوعي والكلي-الجزئي

ينطلق غدامير في تحليله لهذه الأساس من الإخفاق الذي منيت به النزعة التاريخية أو التاريخانية عند دلتاي، إذ في اعتقاده "لا يمكن للمعرفة التاريخية أن توصف بنموذج المعرفة الوضعانية، لأنها في حد ذاتها عبارة عن تطور يتمتع بكل خاصيات الحدث التاريخي، ينبغي أن يدرك الفهم على أساس أنه فعل الوجود بمعنى أنه مشروع ملقى".[2] يتعلق الأمر الآن -يقول غدامير- بتحديد بنية الفهم واقعيا التي يتأسس عليها فن التأويل، فهو الانتماء إلى التراث، في هذه اللحظة تتدخل قاعدة تأويلية تراثية لانتقادها..يتعلق الأمر بالعلاقة الدورية بين الكل وأجزائه، ولكن على ضوء الكل تتخذ الأجزاء وظيفتها التوضيحية، فنحن قبل أن نفهم شيئا جملة ما عموما، فإننا نعمل وفق البنية القبلية التي تؤسس بذلك القاعدة الرئيسية للفهم البعدي، هذا التطور محكوم بمعنى شامل نستهدفه،

---

[1]- عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة،ص.40.

[2]- هانس جيورج غدامير:فلسفة التأويل (الأصول، المبادئ، الأهداف)ت.محمد شوقي الزين، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الدار العربية للعلوم، بيروت، منشورات الاختلاف(الجزائر)، الطبعة الثانية، 2006، ص ص 39، 40 .

ومبرّر بعلاقات يمنحنا إياها سياق قبلي، لكن هذا المعنى الشامل والمسبق ينتظر أن أو يصحح ليتمكن من تشكيل وحدة القصد المنسجم، ... عندما ينعدم الانسجام فإننا نتكلم عن إخفاق الفهم. ينشأ الفهم انطلاقا من الكل المشكّل ليس فقط من العوامل الموضوعية وإنما أيضا من ذاتية المؤلّف. إذ أن العوامل الذاتية للفهم التي ذكرها شلايرماخر لا تقنعنا بتاتا: "عندما نفهم نصا معينا، فإننا لا نحل محل الآخر ولا يتعلق الأمر باختراق النشاط الروحي للمؤلّف" فليست المسألة سوى إدراك المعنى أو الدلالة أو القصد من بين كل ما تداول إلينا". [1]

بتعبير آخر، تتعلق المسألة بإدراك القيمة الضمنية للبراهين المقدمة والكاملة نسبيا. إننا نجد أنفسنا في دائرة القصد المفهوم في حد ذاته ودون أن يبرر الرؤية المحمولة على ذاتية الشريك.إن التجربة التأويلية (تجربة المعنى) تضمن توازنها بفضل عامل التطبيق الذي كان غائبا، ويرد له غدامير الاعتبار"إن فهم ص ما هو رأسا، تطبيقه على أنفسنا، ومعرفة أن نص كهذا حتى ولو وجب دائما فهمه بشكل مغاير، يبقى مع ذلك هو النص نفسه الذي يظهر لنا في كل مرة، بطريقة مختلفة" .[2] إن عامل التطبيق يخلّص عملية الفهم من سمتها الاسقاطية الذاتية ويحوّلها إلى عملية قائمة على التفاعل بين النّص والمؤوّل، ويتحقّق فيها انصهار "أو" اندماج بين أفق الحاضر (أفقٌ) وأفق الماضي (أفق النص). وهذا إن دلّ على شيء فإنمّا يدلّ على أن أفكارنا الخاصة التي تلعب دورا حاسما في إحياء معنى النص، لم تعد موقفا خاصا تتمسّك به وتفرضه على النص، وعندئذ فقط،

30-المصدر نفسه، ص 41.

[2]- هانس جيورج غدامير:اللغة كوسيط للتجربة التأويلية.ص.30.

وبفضل التفاعل الممكن بين تجربتي الخاصة وتجربة النص، "يتوصل إلى التعبير شيء ليس لي فقط ولا لمؤلفي، ولكنه شيء مشترك بيننا" .[1]

إن الفهم أو التأويل لا يمكنه أن يستقلّ عن الأفق الرّاهن للمؤوّل ولا عن الأفق الماضي للنص، بل ينجم عن انصهارهما أو اندماجها، وفي هذا الاندماج تجد مسألة تحديد البعد التاريخي لظاهرة الفهم حلها المناسب[2]. إن الذات موجودة دائما داخل التاريخ تعيشه وتعانيه، ولا يمكنها أبدا أن تتموقع خارجه وتضع نفسها على مسافة منه، بحيث يتجلّى لها في كامل موضوعيته.من هنا كان غدامير ينتقد الموضوعية الساذجة التي تقرّها النظريات العلمية وعلوم الفكر، التي لا تعير أدنى اهتمام للأفق الخاص بالمفسّر أو المؤوّل. إن هذه النظريات العلمية تعتقد أنه من الواجب ومن الممكن كذلك، أن تضع جانبا كامل مجموع مفاهيمنا الخاصة وأفكارنا المسبقة، في حين بيّن التاريخ نفسه أن هذا المسعى ليس إلا مجرد وهم ساذج بالنسبة لكل قارئ مفكر.[3] ذلك أنه "ليس السعي إلى تجنب مفاهيمنا الخاصة في التفسير مستحيلا وحسب، ولكنه عبثي بشكل واضح، أن نفسّر هو بالضبط، أن نستخدم مفاهيمنا المسبقة الخاصة".[4]

---

[1]- هانس جيورج غدامير:اللغة كوسيط للتجربة التأويلية، ص 22.

[2]- هانس جورج غدامير:فن الخطابة وتأويل النص ونقد الإيديولوجيا، ص 16.

[3]- هانس جيورج غدامير:اللغة كوسيط للتجربة التأويلية.ص.29.

[4]-المصدر نفسه.ص 30.

ولهذا يؤكد غدامير على ضرورة تدخل الذّات ومشاركتها الواعية في عملية التأويل، إن المؤرخ "بقدر ما يفكر بوعي، بشروط التأويل، بقدر ما يتدخل في عملية التأويل". [1]

إن الذات يهمها بالضرورة أن تصبح "على وعي" بمفاهيمها وغايتها وأحكامها المسبقة السائدة في عصرها الخاص والتي تفرض نفسها على كل عملية فهم أو تفسير. إن الأفكار المسبقة تدخل بشكل واضح علني وإن بشكل خفي مستتر، وأنه من الأحسن لنا أن نسلّط الضّوء عليها حتى تصبح شفّافة ومرئية ومن ثم قابلة لأن تصحّح "... إن تفكيري في فهمي المسبق يعطيني القدرة على تقويم كفاءات فهمي المسبق، الكفاءات المقبولة أو غير المقبولة وهو أمر لن يكون سوى فهم جديد، عندما أتعلّم كيف استخلص أمورا مرئية تحت تأثير سلطة الرأي المسبق وهذا يضمن أن لا تنقطع الآراء المسبقة، التي توجه فهمي المسبق، عن أن تكون مستخدمة إلى حين أتخلّى عنها، وهي طريقة أخرى من طرق تحويلها"[2].

دلالة البحث التأويلي إذن هي الكشف عن معجزة الفهم وليس الكشف عن التواصل العجيب بين الذوات، الفهم هو المشاركة في القصد الجمعي. من جهة أخرى، تتطلب الوجهة الموضوعية لحلقة التأويل أن توصف بنمط آخر غير الوصف الذي عرضه شلايرماخر، لأن ما نحن عليه من اشتراك مع التراث الذي ننتمي إليه هو الذي يحد، د أفكارنا المتخيلة ويقود فهمنا. وعليه فإن هذه "الحلقة" ليست أبدا من طبيعة صورية بحتة، فهي ليست كذلك، لا من وجهة

---

[1]- هانس جورج غدامير: فن الخطابة وتأويل النص ونقد الإيديولوجيا، ص.11.

[2]-المصدر نفسه.ص.16.

نظر ذاتية ولا من وجهة نظر موضوعية يقع دورها بالعكس داخل هذا الحقل الممتد بين النّص وبين من يفهمه، يقدم قصد المؤول نفسه كوسيط بين النص وبين كل الذي يضمر هذا الأخير. يهدف التأويل إذن إلى إرجاع وإحلال الاتفاق وتسديد النقائص، كل هذا قد أكده تاريخ التأويل.[1]

هكذا إذن يضع غدامير الأساس الأول لنشاط التأويل، يجمع فيه بين الذاتي والموضوعي ويرفع كل انفصال بينهما، مثلما فصل الفلاسفة السابقون بينهما، ويربط الجزئي بالكلي في عملية التأويل التي تبنى بالأساس على فعل الفهم، فيقدم بذلك مقاربة ابستمولوجية جديدة ومتميزة، تخطو بالهرمينوطيقا خطوة أخرى إلى الأمام.

الفهم والتفسير

لقد قام شلايرماخر بخطوة حاسمة شكّلت منعرجا حقيقيا في تاريخ الهرمينوطيقا، ومثّلت حدا فاصلا بين الهرمنيوطيقا التقليدية والهرمنيوطيقا الحديثة. تكمن هذه الخطوة في تجاوز شلايرماخر تفسير النصوص الفعلية والبحث عن معناها، ليسلّط الضوء على" عملية الفهم" في حد ذاتها وعلى الشروط الضرورية لمقاربة النصوص وتفسيرها. من هنا تخلّت الهرمنيوطيقا عن مهمتها الأولية المتمثلة في متابعة المعنى لتصب جل اهتمامها على وضع القوانين والمعايير التي تضمن "الفهم المناسب" للنصوص أيا كانت هذه النصوص في تحقّقها الملموس.لقد انطلق شيلايرماخر من مبدأ "أولوية سوء الفهم"، بمعنى أننا معرضين تلقائيا لسوء الفهم أكثر فأكثر من كوننا نفهم بكيفية صحيحة ومناسبة، خاصة إذا تقدم النص في الزمن وصار أكثر غموضا والتباسا

---

[1]- هانس جيورج غدامير:فلسفة التأويل.ص 42.

بالنسبة إلينا. وإذا كانت القاعدة التي قامت عليها الهرمينوطيقا التقليدية تقر بأننا نفهم كل شيء، إلى أن نصل إلى مقطع معين لا نفهمه أو يتعارض مع ما فهمناه، فإن الهرمينوطيقا الحديثة قامت على قاعدة مناقضة للقاعدة التقليدية. إننا "لا نفهم أي شيء ما دمنا لم نمسك بمعناه أو لم ندرك أهميته بعد. بهذا المعنى يصير التأويل عملية غير منتهية. [1]وبهذا يكون شلايرماخر قد أرسى نظرية عامة حول التأويل والفهم، بعدما كانت الهرمينوطيقا مجرد تأويل للنصوص. يقول "نصر حامد أبوزيد"، إن شلاير ماخر يكون "قد وصل بها (الهرمينوطيقا) إلى أن أن تكون علما بذاتها يؤسّس عملية الفهم"[2].

وفي نفس السياق يذهب غدامير إلى اعتبار الفهم والتفسير حلقتين أساسين من الممارسة التأويلية، المكونة من ثلاثية، الفهم، والتفسير أو التأويل والتطبيق: فلا يمكن في اعتقاده أن يوجد أي تفسير دون فهم، بمعنى أن التفسير هو الشكل الظاهر للفهم، أي أنه يقوم في الأساس على الفهم[3].لقد ظل غدامير وفيا للمنحى الأنطولوجي للفهم، مثلما هو الأمر مع أستاذه "هيدجر" خصوصا في مسألة اللغة والتناهي الذاتي الذي تكشف عنه التجربة التاريخية وهرمينوطيقا الفهم وفهم الذات على وجه الخصوص. وهو ما أسماه هيدجر بـ"المنعطف الأنطولوجي الحاسم ontologische wendung، في تجربة الفهم الذاتي. أنطولوجية الفهم هذه جعلت هيدجر يرى هذا المشكل مجرد معضلات ابستمولوجيا ومعيارية كانت تتخبط فيها التاريخانية بحرصها على تطبيق نماذج العلوم الدقيقة على دراسة المشكلات الإنسانية والانثروبولوجيا والبحث عن قاعدة أو أساس متعال ونهائي

---

[1] - Peter Szondi : « *l'herméneutique de Schleiermacher* » ; p145.

[2]-- نصر حامد أبو زيد : الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص. ص 144.

[3]- هانس روبرت ياوس علم التأويل الأدبي، ص 55 . 56 .

بالنسبة إلينا. وإذا كانت القاعدة التي قامت عليها الهرمينوطيقا التقليدية تقر بأننا نفهم كل شيء، إلى أن نصل إلى مقطع معين لا نفهمه أو يتعارض مع ما فهمناه، فإن الهرمينوطيقا الحديثة قامت على قاعدة مناقضة للقاعدة التقليدية. إننا "لا نفهم أي شيء ما دمنا لم نمسك بمعناه أو لم ندرك أهميته بعد. بهذا المعنى يصير التأويل عملية غير منتهية. [1]وبهذا يكون شلايرماخر قد أرسى نظرية عامة حول التأويل والفهم، بعدما كانت الهرمينوطيقا مجرد تأويل للنصوص. يقول "نصر حامد أبوزيد"، إن شلاير ماخر يكون "قد وصل بها (الهرمينوطيقا) إلى أن أن تكون علما بذاتها يؤسّس عملية الفهم"[2].

وفي نفس السياق يذهب غدامير إلى اعتبار الفهم والتفسير حلقتين أساسين من الممارسة التأويلية، المكونة من ثلاثية، الفهم، والتفسير أو التأويل والتطبيق، فلا يمكن في اعتقاده أن يوجد أي تفسير دون فهم، بمعنى أن التفسير هو الشكل الظاهر للفهم، أي أنه يقوم في الأساس على الفهم[3].لقد ظل غدامير وفيا للمنحى الأنطولوجي للفهم، مثلما هو الأمر مع أستاذه "هيدجر" خصوصا في مسألة اللغة والتناهي الذاتي الذي تكشف عنه التجربة التاريخية وهرمينوطيقا الفهم وفهم الذات على وجه الخصوص. وهو ما أسماه هيدجر بـ"المنعطف الأنطولوجي الحاسم ontologische wendung، في تجربة الفهم الذاتي. أنطولوجية الفهم هذه جعلت هيدجر يرى هذا المشكل مجرد معضلات ابستمولوجيا ومعيارية كانت تتخبط فيها التاريخانية بحرصها على تطبيق نماذج العلوم الدقيقة على دراسة المشكلات الإنسانية والانثروبولوجيا والبحث عن قاعدة أو أساس متعال ونهائي

---

[1] - Peter Szondi : « *l'herméneutique de Schleiermacher* » ; p145.

[2] -- نصر حامد أبو زيد : الهرمنيوطيقا ومعضلة تفسير النص. ص 144.

[3] - هانس روبرت ياوس علم التأويل الأدبي، ص 55 . 56 .

وإذا كان الفهم يتخذ دلالة تطبيق المعنى على واقعنا وراهانياتنا فهذا يدل على فن بلورة أجوبة وانتظارات للمسائل التي تشغل بالنا وتدفعنا دوما نحو السؤال والمساءلة وإيجاد أجوبة بالتجاوب مع التراث والانفتاح على حقائقه ورموزه ومعانيه كإكراه قسري وجبر قهري، وإنما كحسن التمعن وفن الإنصات لما يقوله غدامير في هذا السياق ما يلي"جدلية السؤال والجواب التي كشفنا عنها في بنية التجربة التأويلية تمكننا الآن وبدقة من تحديد نمط الوعي في الوعي بفاعلية النشاط التاريخي، لأن جدلية السؤال والجواب التي كشفنا عنها تظهر الفهم كعلاقة تبادلية لنمط الحوار"[1].من هنا يتخذ الفهم علاقة ذات بأصولها وجذورها ووعي بماضيه وتاريخه .وفي محاضرة قدمها غدامير بعنوان"النص والتأويل" يطرح فيها جملة من التساؤلات حول حقيقة الفهم وماهيته. ألح فيها على السؤال التالي :" هل التعامل مع الشيء نفسه (أو جوهر الشيء بالمعنى الفينومينولوجي) هو الانتماء إلى ميتافيزيقا الحضور التي يتحدث عنها دريدا ؟ يجيب غدامير انطلاقا من قناعته أن "الفهم نتاج التعامل مع الشيء نفسه والإقرار بحقيقة الشيء في نفسه مما يفتح السبيل نحو الحوار كمشاركة مع الآخر بمعزل عن إرادة الهيمنة وتمويه الحقيقة... التجربة التأويلية في نظره هي نشاط الفهم في طيات لغة حية وفاعلية الحوار بين قارئ ومقروء ينتميان إلى اللحظة التأويلية كتجربة معاشة. [2]

يركز غدامير في أطروحاته على إرادة الفهم داخل إرادة التفاهم والمشاركة باعتباره نمطا خاصا يميز حقيقة الإنسان، الحقيقة المستخلصة من فاعلية الحوار

---

[1] - هانس جيورج غدامير: فلسفة التأويل، ص 24.

[2] - المصدر نفسه، ص 31 .

ليست الحقيقة المطلقة والمغلقة. ولكنها "حقيقة" مبدعة ومهيأة من جملة الحقائق المنتجة مما يجعل الفهم كمشروع غير مكتمل دائم المراجعة والتجدّد، الحقيقة التي يكشف عنها الفهم هي مشاركة وليست امتلاكا، إنتاج الدلالة وبلورة المعنى وليست إرادة السيطرة والهيمنة.إننا نفهم بنمط مختلف ونعيد وضع الحقيقة المكتشفة والمعنى المشكل على محل النقد والتمحيص لأن اللغة بما هي حوار وتفاهم لا تقف عند حد ولا تسكن إلى حقيقة ودلالة معينة، بل هي في ارتحال لا يستقر وضرورة دائمة تؤطرها جدلية السؤال والجواب.

وليس بعيدا عن المنحى الأنطولوجي الذي رسمه هيدجر للفهم، يواصل غدامير حديثه من معنى البنية الدورية للفهم. إذ يورد نصا لهيدجر استقاه من كتابه "الوجود والزمان" قائلا"...تنطوي هذه الحلقة على إمكان صحيح للمعرفة الأكثر أصالة التي لا ندركها بصواب، إلا بإقرارنا أن كل إيضاح (أو تأويل) تعلق نشاطه الأوّل والمستمر والنهائي في أن لا يفرض تخيلاته وحدوسه ومفاهيمه الشعبية على خبراته ورؤاه المسبقة هو تأمين مبحثه العلمي بتطوير أفكاره وتخيلاته حسب الأشياء نفسها".ففي تحليل غدامير لهذا النص، يكشف عن المقتضيات التي تفرض نفسها على ممارسة الفهم، التي تصف لنا الطريقة التي يتبعها التأويل، بحيث يكون المعيار هو"الشيء نفسه""إنها المرة الأولى التي تؤكد المعنى الإيجابي أنطولوجيا للحلقة التي يقتضيها الفهم، ينبغي لكل تأويل حقيقي أن يحترز اعتباطية الأفكار التوهمية التي تلوح في الخاطر ابتداء من الحدود المنحدرة من بعض العادات اللاواعية للتفكير".[1] لقد بات من الواضح أنه لكي نكون صادقين لابد أن تكون رؤية الاستقصاء موجهة نحو"الشيء نفسه "

---

[1]- هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل.ص 43-44.

بحيث يدرك"شخصيا".لكن الطابع الدوري أو الحلقي للفهم هو نتيجة جهد يبذله ويدعمه المؤوّل للإكتفاء بصرامة هذا البرنامج، رغم الأخطاء التي بالإمكان ارتكابها أثناء أبحاثه واستقصاءاته". [1] فكل تأويل لنص ما لابد أن ينطلق من تفكير المؤوّل حول الأفكار المتصورة مسبقا الناشئة عن"الوضعية التأويلية" التي يتواجد فيها، فعلى عاتقه أن يضيف نوعا من المشروعية، بمعنى أن يبحث عن أصلها وقيمتها، نفهم من هذا أن"نشاط التأويل يقتضي شيئا آخر ...تأصيل الفهم كما يمارسه كل من يفهم"، إنه من الاعتباطي أن نفهم النص تبعا للمصطلح وللمتاع المفاهيمي الخاصين بنا، كيف نميّز بين لغة غير مألوفة عموما وبين لغة غير مألوفة خاصة بالنص؟لا يمكننا الإجابة سوى بتوضيح أننا نتلقى تدريبنا الأوّلي من النص نفسه :أن لا نفهم من النص شيئا أو أن الإجابة التي يقدمها لنا تتعارض مع افتراضاتنا وتوقعاتنا، فإن تجربة الفشل هي التي تكشف عن إمكانية استعمال لغوي غير معهود[2].

يتساءل غدامير، عندما يتحدث عن القصد التأويلي ومقتضياته : ما هو المعنى المقبول"لاعتقاد المتلفظ به والمعنى "المندمج"لدلالة ما؟ فيجيب"...لكن القصد الحقيقي للفهم هو هذا الأمر:عندما نقرأ أيضا، فإننا نسعى لفهمه، الأمر الذي نتوخّاه هو أنه يعلّمنا شيئا ما.الوعي المشكّل من الموقف التأويلي الحقيقي يتأثر بالأصول والخاصيات الأجنبية عن الأمر التي يأتي من الخارج".[3] إن الموقف التأويلي لا يقتضي حيادا موضوعاتيا، ولا يفترض سوى الوعي الذي يتميزه

---

[1]- المصدر نفسه، ص 44.

[2]- المصدر نفسه، ص.ص 45-46.

[3]- المصدر نفسه، ص 47 .

لاعتقاداتنا وأحكامنا المسبقة، فإنه يصفها كما هي وينزع عنها طابعها المتطرف، وبتحقيق هذا الموقف في نظره نمنح للنص إمكانية ظهوره مختلفا، ونكشف عن حقيقته الخالصة في مقابل الأفكار التي نتصورها مسبقا ونواجهه بها، من هنا " تشعر الحاجة بكل طاقتها في إعداد وعي يقوده ويراقب الافتراضات المتضمنة في نزوعها الفكري، نضمن بذلك فهما صحيحا باعتباره متصلا اتصالا وثيقا بالموضوع المباشر لمقاصدنا".[1] وهو ما يضمن-يقول هيدغر-مبحثنا العلمي بتطور خبراتنا وورؤانا المسبقة وافتراضاتنا الأولية تبعا"للأشياء نفسها"التي تمثل الأفق.بناء على كل هذا يرى غدامير أن"الفهم لا يمثل فعل ذاته الفرد، بل هو وضع المرء لنفسه داخل سيرورة التراث التي ينصهر بها الماضي والحاضر باستمرار"ولهذا لسبب يعد فعل التأويل بذاتيا ويحتوي العناصر التي تربطنا بالتراث الذي يحدث فيه التأويل".[2] هذه العناصر هي في نظره :الفهم المسبق، والتصور المسبق للكمال والعلاقة بالحقيقة.عند تحقيقنا لهذه الشروط نكون في وضع يؤهّلنا لفهم النص بوصفه معنى الآخر.ويقصد بالمعنى هنا المضمون، لا قصد المؤلّف، أما الآخر فيمكن أن يكون الزمان أو الآخر في الشخص أو كليهما.[3]

ويميز غدامير بين نوعين من الفهم:

الفهم الجوهري وهو فهم محتوى الحقيقة(التي تنكشف بقراءة النص).الفهم القصدي وهو فهم مقاصد وأهداف المؤلّف.

---

[1]- هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل، ص 48، 49.

[2] - جنة التأويل «دراسة نظرية www.Jehat.com/04/102005/"

[3] - المرجع نفسه.

فالفهم هو إدراك المعطيات النفسية والفردية والتاريخية التي ينطوي عليها التصريح بقضية معينة مقابل فهم ماهية هذا التصريح أو السلوك أو الفعل في حد ذاته. فما نفهمه ليس هو حقيقة أو دلالة التصريح وإنما الحيثيات والملابسات التي سمحت في ظرف خاص وضمن سياق معطى للفرد أن يصرّح عن أمر معين.فالفهم القصدي هو وسيلة إستراتيجية ".يستعان بها في اللحظة التي يخفق فيها الفهم الجوهري في إدراك حقيقة ما ويؤطره التساؤل التالي:ماذا كان يقصد هذا الفرد بالذات؟[1] يصبح الفهم إذن هو إعادة تأسيس المقاصد الأصلية والأوّلية لهذا المؤلّف على ضوء حياته الفكرية وما أراد قوله والتعبير عنه في أثره ونصوصه.إذا كان الفهم المسبق عنصرا مبهما يعيق البداهة والوضوح في عصر الأنوار فإنه في نظر غدامير يصبح عنصرا فعالا في الفهم والتأويل"فقبل أي تأويل أو رصد للمعنى يحتمله النص أو الأثر تتشكّل هندسة قبلية تضع في النص أو الأثر في سياق خاص وضمن منظور معين، تعبر عن السيلان أو التدفق اللانهائي للمعاني التي تتجه من الوعي إلى الموضوع (النص أو الأثر) والافتراض المسبق يدل على انخراط الوعي في سياق تاريخي ولغوي خاص".[2] يقول غدامير مدعما رأيه بقوله:"كل فهم لنص ما يفترض أن تكون هذه الوحدة موجهة من طرف الافتراضات المتعالية، في علاقة أهداف النص بالحقيقة".[3] هكذا تنجلى حقيقة الفهم التأويلي في تصور غدامير، الفهم المؤسس على رؤية أنطولوجية فينومينولوجية وفلسفة متميزة عن تصور شلاير ماخر وهوسرل وهيدغر، رغم تقاطع أفكاره معهم في كثير من النقاط.

---

[1]- محمد شوقي الزين تأويلات وتفكيكات. ص 37.

[2] -المرجع نفسه. ص. 39 .

[3] / H.G Gadamer : « *Le problème de la conscience historique* », Paris , Seuil, 1996.

التأويل والتراث:

كشفنا في العنصر السابق عن الدور الذي تلعبه الافتراضات المسبقة الأساسية والعامة في عملية الفهم. في مقدورنا الآن – يقول غدامير- أن نحدّد بدقة دلالة ظاهرة"الانتماء"بمعنى عامل التراث في السلوك التاريخي التأويلي"ينبغي لفن التأويل أن ينطلق من مسألة أن الفهم هو الوجود في علاقة مع الشيء نفسه الذي يظهر مع التراث وعبره أين يمكن"الشيء"أن يتصل بي.من جانب آخر، إن الذي يحقق فهمنا تأويليا عليه أن يتحقق من أن علاقاتنا بالأشياء، ليست علاقة بديهية دون أن تطرح بعض المشكلات".[1]إن أي نص أو أي موضوع هو إتحاد بين النص والفكر التاريخي، ذلك الإتحاد الذي يكشف واقع التاريخ وواقع الفهم التاريخي، ويوصف هذا الانصهار بمصطلح wirkungs geschichte الذي يترجم إعادة إلى "التاريخ الفعال".وقد صيغ لحل المشكلة التي مفادها، أن ما يكون لنا يمثل أمامنا في ضوء ذواتنا بحيث لا يعود لقضية الذات والآخر أي وجود، وإن كنا محدّدين بالطريقة التي ننظر بها إلى العالم، وبأفقنا بإمكاننا تقبل "أفق" الآخر ومنظوره من خلال إدراك تاريخية موقعنا.يقول غدامير أننا نظهر" أفقنا مع أفق الماضي والحاضر.لذا ما عاد هناك مؤوّل ذاتي ومعنى نصي موضوعي، بل أصبحت هناك وحدة بيذاتية في الزمان، وصار هناك تراثا ما وراء شخصي supra personale تعد آثاره التي تظهر على الفرد –الفهم المسبق والانحياز والتصور المسبق ...إلخ شروطا أساسية لفهم الذاتي.[2]

---

[1]- هانس جورج غدامير : فلسفة التأول، ص52.

[2]- التأويل والحقيقة والتراث : مقاربات هرمنوطيقية www.Jehat.com 04/10/2005.

من هنا يتضح لنا أن الهرمينوطيقا تعتبر التاريخ جزءا لا يتجزأ من مشروعها، بخلاف الظاهراتية التي تتغافل عنه في مقاربتها لمشكلات المعنى النصي.ففي الوقت الذي يرى فيه شلايرماخر ودلتاي أن الزمن فجوة لابد من ردمها بالتأويل، نجد غدامير يقر بأن المسافة الزمنية أساس لدعم العملية الهرمينوطيقية أي الأساس الذي يستوعب التراث والمرجعية.يقول غدامير هذا الكلام لأنه يعتقد أن فن التأويل يسعى حيثما طبق"إلى الرجوع إلى المصادر الأصلية والبدايات الأولى قصد الحصول على فهم جديد للمعنى الذي ظل محل تحريف وإفساد سببه الإعوجابات والتشويهات والاستعمالات السيئة وغير الوجيهة ...لا يهدف النشاط الجديد لفن التأويل فقط إلى الفهم الدقيق، وإنما يسعى خصوصا إلى الكشف عن قاعدة نموذجية..."[1]

نؤسّس نشاط التأويل على التوتر الكائن بين "الألفة"والخاصية "الأجنبية "للتعاليم والدروس التي ينقلها إلينا التراث.لكن هذا التوتر لا يرتبط بما تحدث عنه دلتاي أو شلاير ماخر عندما تحدثا عن التوتر النفسي، فهو بالأحرى "دلالة وبنية التاريخية التأويلية " فالأمر لا يتعلق بحالة نفسية وإنما بـ "الشيء نفسه " المسلّم من طرف التراث.باعتباره موضوع التساؤل التأويلي، فيما يتعلق بالخاصية "المألوفة" و"الأجنبية" للدروس التاريخية، فإن فن التأويل يلتمس "وضعية الوسيط"، بتنازع المؤوّل انتماؤه إلى التراث والمسافة الكائنة بينه وبين الموضوعات باعتبارها مبحثا لأبحاثه واستقصاءاته".[2] فالاندماج الحاصل بين أفق الماضي والحاضر يجب أن يكون انتقالا مستمرا للماضي في الحاضر، وهو

---

[1]-هانس جورج غدامير . فلسفة التأول .ص 66.

[2]- المصدر نفسه، ص. 52/ 53.

الانتقال الذي يضمن الحوار الدائم للتقليد في واقعنا الراهن، عندئذ فإن أفكارنا المسبقة نفسها ومفاهيمنا القبلية، ستكون نابعة من التقليد ذاته أو من التراث، وما دام التراث لم يعد يتكلم عبر الماضي وأعمال الماضي (موضوع التأويل) فحسب، بل وعبر المؤوّل ذاته(فعل التأويل) أيضا، فإنه"يتوسط دائما عملية التأويل، وفي عملية التوسط هذه يبقى التراث حيا دائما".[1] هكذا تصبح قوة الأفكار المسبقة من التقليد ومن السلطة والتاريخ هي المسؤولة عن الفهم. التراث هو المؤسس لفعل الفهم "ككل عصر، فإن كل عصر يفهم بكيفية مختلفة، لكن كل واحد منهما يخلق المفاهمة مع الماضي والتقليد بفضل قوة الفكرة المسبقة، إن الفهم لم يعد وحيد الجانب إذن، ولكن الحوار لا يرجع إلى مبادرتنا إلا بكيفية جزئية، إنه يحدث أو يتم، والتقليد هو الذي يضمن الفهم رغم الزمن الذي يمر".[2]

من هنا نرى وجهة نظر مغايرة لغدامير، بخلاف التصور التفكيكي الذي يرى في كل تقليد سلبية ينبغي أن تتجاوزها.لقد أدرك أن التاريخ باعتباره يشكل متصلا لا ينقطع، خاليا من أي تمزق حاسم أو صراع أو تناقض، إن عمل الماضي يعمّق فهمها الذاتي للحاضر، بدلا من أن يفسده.يتبين لنا بالتأكيد أن التراث هو وحده الذي يؤسس الفهم، وهو الذي يجب أن يستمر في تأسيس سلطة الأفكار المسبقة، يقول "تيري إيغلتون" "للتقليد سلطة يجب أن يخضع لها، وليس هناك سوى إمكانية ضئيلة لتحدي هذه السلطة نقديا...لأن

---

[1] - هانس جورج غدامير: فن الخطابة وتأويل النص ونقد الإيديولوجيا، ص 11.

[2] Rainer Rochlitz Avatars : « *De L'herméneutique in critique* » ,510, (1989), p.856.
نقلا عن عبد الكرم شرفي : من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ص 47-48.

التقليد...له تبريره الذي يقع خارج حجج العقل".[1] فإذا كانت أحكامنا المسبقة ومفاهيمنا القبلية نابعة أصلا من التقليد والتراث، فهي في الواقع ما يسمح لنا بتحمل "حقيقة الماضي كما هو".فتلقينا لحقيقة التراث معناه تطبيق لقضاياه ومسائله عن اللحظة الراهنة، شريطة أن يحدث هذا وفق العقل النقدي والوعي التاريخي، ثم إن التطبيق ليست إجراء لاحقا عن الفهم وإدراك المعنى كما هو الأمر مع شلاير ماخر ومن قبله رواد الرومانسية، بل إن فهم الذات هو تطبيق الحقيقة المكتشفة في النص والتراث والحقيقة المنتجة في اللحظة الراهنة على الذات كما بيّنا ذلك من قبل .[2]

التاريخ بالنسبة لغدامير هو الذي يؤطر عملية الفهم أو التأويل الذي يتجه من القارئ إلى المقروء، فيلعب دور الموجّه المنهجي، وينير السبيل الذي يسلكه الوعي في رصد موضوعاته.ثم إن منطق الافتراض المسبق يعتبر أن "قبل" النص هناك نص آخر "نص قبلي" و"قبل"الفهم هناك فهم آخر"فهم قبلي"و"قبل"التأويل هناك تأويل آخر "تأويل قبلي" هذه التأسيسات القبلية تعتبر أن المواضيع التي يقصدها الوعي والنصوص التي يقرؤها المؤوّل ليست مواضيع أو نصوصا مستقلة ومعطيات مطلقة وإنها هي " آفاق منصهرة" من تأويلات وقراءات آنية تشكّلت في الحاضر هنا والآن، وأخرى تأسست في الماضي، وعليه ينخرط التراث بكل إمكانياته وكموناته الدلالية والرمزية والتأويلية والتاريخية في آنية الحاضر، تصبح إذن كل قراءة لنص أو أثر فني أو أدبي أو فلسفي هي قراءة وتأويل للتراث مادام هذا النص أو هذا الأثر هو نسيج علاقات تأويلية وخطابية

---

[1]- تيري إيغلتون: نظرية الأدب . ص 128.

[2]- عبد الكريم شرفي:« من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة» ، ص 22 وما بعدها.

مثبتة تشكّلت في التاريخ فهو تأويل لتأويلات أخرى عملت على فهم بنية التراث واستقصاء وظيفته وصلاحيته.من هنا يتخذ النص أو الأثر صورة وعاء يحتوي على تأويلات وتصورات وخطابات ومناهج سابقة ليحتوي أيضا على افتراضاتنا الراهنة.

من هنا تتبين لي النتائج التالية:

- انفتاح النص على الوجود التاريخي أو الإجتماعي أو المعرفي.
- العلاقات بالنص تؤوّل إلى الالتقاء بالتراث.
- "ما قبل" التأويل أو الفهم أو القراءة، والقراءة أو الفهم أو التأويل "الراهن" هي آفاق منصهرة أو عوالم متداخلة.
- "ما قبل" النص (والمتضمن أيضا في النص) ينصهر مع النص في "أفق"(=سياق) متبدّل ومتغيّر.

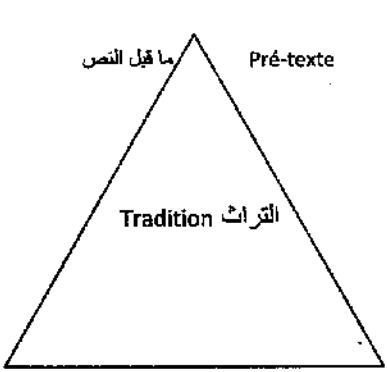

[1] -محمد شوقي الزين :تأويلات وتفكيكات .ص 39-40.

لقد عمل غدامير على وضع قواعد وأسس ليس فقط إلى تطبيق أورغانون منهجي وإبستيمولوجي في قراءة التراث الإنساني، وإنما أيضا تشكيل "وعي تأويلي" قوامه الحس التاريخي والنقدي في تناول موضوعات التراث وعقلانية متميزة في فحص أصوله واكتناه تركيبه، وهو ما يسميه بالوظيفة الفعلية للتاريخ....فالوعي التأويلي يعكس ظهور التراث ولإظهار آفاق الماضي والحاضر في حقيقة الفهم.[1]

المسافة الزمنية والروح النقدية:

في سياق الحديث عن النزعة التاريخية ومالها من دور في العملية التأويلية، يعمد غدامير إلى نقد النزعة اللا تاريخية، ويعرض لتصوره هذا في كتابه "الحقيقة والمنهج" wahrheit und méthode الذي أصدره عام 1960، يفصل فيه بين الحقيقة والمنهج، ويهاجم فيه المفهوم القائل أن المنهج شيء يمكن تطبيقه على موضوع معين للخروج بنتيجة ما، ويقدم "الهرمينوطيقا الفلسفية "بوصفها وسيلة لتصحيح مسألة تعيين هوية الحقيقة والمنهج الذي يرى أنها تميز العلوم، فيتجاوز بذلك تصوير "شلاير ماخر" للهرمينوطيقا بوصفها سيكولوجية الفهم، ويرفض ربط "دلتاي" للتأويل بالمنهج[2].هذا الأخير أدرك الاختلاف الجوهري القائم بين مادة العلوم الطبيعية (الطبيعة) ومادة علوم الفكر(العقول البشرية ونتاجاتها الفكرية) هذا الاختلاف برأيه هو الذي يفرض تطبيق منهج مخالف تماما لمنهج العلوم الطبيعية، فالعلوم الطبيعية مادتها في حاجة إلى

---

[1]- المرجع نفسه. ص. 42.

[2] www.jehat.com 04/10/2005 - التأويل والحقيقة والتاريخ.مقاربات هرمنيوطيقية

تفسير، بينما مادة علوم الفكر في حاجة إلى فهم أو تأويل، فنظر إلى الأول باعتباره المنهج العلمي المناسب لعلوم الطبيعة، وإلى الثاني باعتباره المنهج العلمي الملائم لعلوم الفكر، فإما أن نفسّر على طريقة العالم الطبيعي، وإما أن نؤوّل على طريقة المؤرّخ.[1] ويغدو الفهم بالنسبة لدلتاي هو الانتقال والتسرّب إلى النفسيات، إنه العملية التي بواسطتها نعرف شيئا نفسيا ما عبر الرموز التي تجلّيه وتكشف عنه، وتغدو الأهمية القصوى للهرمينوطيقا هي فهم هذه الفردية النفسية من خلال الشكل الخارجي[2]. إن مهمة الهرمينوطيقا لا تعنى بإعادة بناء تجربة النص ولا بإعادة بناء تجربة الحياة بمفهومها العام والمشترك، بل تهدف إلى إعادة إنتاج للتجربة الحية كما عاشها الآخر وعاش من وقع تأثيراتها، إن ما يريده الفهم في نظر دلتاي هو "تحقيق تطابقه مع باطن المؤلّف والتوافق معه وإعادة إنتاج العملية المبدعة التي ولّدت النتاج أو الأثر الإبداعي، والغاية القصوى للهرمينوطيقا هي " الفهم الجيد للمؤلّف أكثر مما فهم نفسه".[3]

هذا التصور الذي عرضه دلتاي لم يسلم من انتقاد غدامير حيث يقول "لقد كان التوجه النفساني الذي أدخله (دلتاي) على التأويل يحول دون بلوغ البعد التاريخي بالضبط لظاهرة التأويل "[4] من هنا جاء تأكيده على ضرورة تخليص عملية الفهم من الطابع النفسي الذي وسمتها به رومانطيقية دلتاي، وبالتالي ضرورة فصل النص عن ذهنية المؤلّف وروح العصر الذي ينتمي إليه. وفي رفض غدامير لتصور دلتاي، يبدأ بدلا منه يرغم هيدجر القائل بضرورة أن

---

[1] - عبد الكريم شرفي :من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ص . 32.

[2] - هانس جيورج غدامير : اللغة كوسط للتجربة التأويلية. ص20 .

[3] - بول ريكور : النص والتأويل. ص. ص. 42- 44.

[4] - هانس جيورج غدامير اللغة كوسط للتجربة التأويلية ص .26

تقف النزعة التاريخية historicism والسلطة الزمنية temporality في مركز أي مشروع فلسفي، بحيث لا تعدو المسافة الزمنية zeitabstand التي تفصل المؤوّل عن الموضوع الذي يؤوّله عن أن تكون حاجزا ينبغي إزالته، بل تعد سمة مفيدة من سمات العلاقة بين الاثنين يمكن من خلالها طرح سؤال الهرمينوطيقا المركزي ومفاده كيف يمكن حماية النص من سوء الفهم من البداية؟.ولتحقيق ذلك يوصي غدامير بضرورة إتباع المؤوّل عند تعامله مع هذه المشكلة للخطوات الآتية:

أولا:ينبغي للمرء إلى وعيه أية أفكار مسبقة قد تؤثر في فعل التأويل.

ثانيا: ينبغي للمؤوّل أن يكون عارفا بعادة حديثة تتمثل بمحاباة نمط معين من النزعة التاريخية.

ثالثا: ينبغي للمؤوّل إحياء مفهوم الانحياز (الحكم المسبق préjugé وإعادة تقييمه، لأنه اقترن منذ عصر الأنوار بالتسرّع في التوصل إلى الأحكام والثقة بالمرجعية autorité الإنسانية من دون استحقاق، وحينما يحاول المرء إصلاح الانحياز، فإنه يصلح قيمة التراث والمرجعية بنجاح .[1] قد يتبادر إلى الذهن التساؤل التالي:كيف يتأتى للمؤوّل التمييز بين الانحياز المشروع والانحياز السيئ؟ فيجيب غدامير أنه من الممكن تحقيق ذلك من خلال استخدام العقل بشكل منضبط منهجيا " معتبرا أن المرجعية مصدر انحياز ومصدر حقيقة معا، بالإضافة إلى أن التراث يسمح لنا بالمحافظة على ما جاءنا من الماضي من خلال فعل العقل.[2] نحن هنا أمام"وضعية تأويلية تضع منذ الآن التأويل في

---

[1] . www.jehat.com.2005/10/04 - التأويل والحقيقة والتاريخ : مقاربات هرمنيوطيقية

[2]- المرجع نفسه

"صلب الأشياء" كما تساعد المؤوّل على الكشف عن ظاهرة لم تناقش حتى الآن إلا نادرا "يتعلق الأمر بالمسافة الزمنية وبدلالتها بالنسبة للفهم، لأنه على عكس ما كنا نتصوره من قبل، ليس الزمن هوة ينبغي لنا تجاوزها لإيجاد الماضي، فهو في حقيقة الأمر الأرضية التي تحمل المستقبل ويتخذ منها الحاضر أصله، ليس "المسافة الزمنية" مسافة ينبغي تجاوزها وعزلها حسب التصور الساذج للتاريخانية تتعلق المسألة في اعتبار " المسافة الزمانية كمؤسس لإمكانية إيجابية منتجة للفهم فهي ليست مسافة نتجاوزها وإنما اتصالحي بين عناصر تتجمع وتتراكم لتتحول إلى تراث بمعنى النور الذي نحضر من خلاله كل ما بإمكاننا إحضاره من ماضينا كل ما تداوله إلينا يظهر إلى الوجود".[1]

المسافة الزمنية تنتج المراقبة والفحص وهي لبست ذات سمو محدّد وإنما تتطور وفق حركة متصلة للعالم والتشميل .فالعالمية المطهرة بالزمن هي الخاصية الثانية للزمانية، فتحفة هذه الأخيرة هي الكشف عن جديد من" الأحكام المسبقة ". يتعلق الأمر بأحكام مسبقة غير جزئية ولا خاصة، وإنما بأحكام تؤسّس الأفكار الموجّهة والمؤسّسة للفهم الحقيقي.

يعتقد غدامير أنه يتحدد من جديد نشاط فن التأويل "فبفضل ظاهرة" المسافة الزمنية " وتوضيح مفهومها يمكننا اكتساب النشاط النقدي لفن التأويل "[2].النشاط النقدي الذي يميز بين الأحكام المسبقة المضللة، والأخرى الموضّحة وبين الأحكام المسبقة الخاطئة والأخرى الصحيحة.وعليه ينبغي رفع الأحكام المسبقة عن الفهم التي تقوده والتي تسمح "للمقاصد الأخرى" للتراث للتخلص

---

[1]- هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل. ص .53.

[2] - المصدر نفسه. ص. 54.

منها والذي يضمن إمكانية فهم الشيء كشيء آخر .[1] من هنا تتبين مرة أخرى مهمة الهرمنيوطيقا .إنها التمييز بين الأحكام المسبقة المشروعة وغير المشروعة.لأن الأحكام المسبقة المشروعة النابعة من داخل الوضع التاريخي للمفسّر تمهد الطريق لنشاط الهيرمينوطيقي، ولا تحطم الموضوعية وإنما تجعلها ممكنة .تأتي مهمة النشاط الهرمنيوطيقي الذي يكفل لنا نوعا من المشروعية للأحكام المسبقة من خلال عملية الحوار.

5- التساؤل وماهية التأويل:

يعتبر غدامير التساؤل أو الاستفسار جوهر الكشف عن الإمكانيات وتفتحها، فعندما تؤسّس إحدى اعتقاداتنا وأفكارنا تبعا لما يقتضيه الاستقصاء التأويلي الجديد وعندما تتجلى الفكرة المسبقة، فهذا لا يدل بأي حال على أنها تترك مكانها لـ" حقيقة نهائية " كما تعتقد النزعة التاريخية الموضوعية، وهو اعتقاد ساذج برأيه " فالحكم المسبق القديم لا يمكن إقصاؤه لأنه في الواقع سيكون له دور هام يؤديه لاحقا وإن كان هذا الدور شيئا آخر غير الذي أداه سابقا عندما كان مدمرا ".[2]

فهذا الحكم المعزول لا يمكنه أن يؤدي دوره الجديد سوى كشيء مستغل لأقصى حد، وأن كل وضعية جديدة تسعى لتعويض وضعية أخرى تحتاج دوما إليها (كوضعية سابقة)، لأنه لا يمكنها التصريح ما دامت تجهل لأجل ماذا وانطلاقا من ماذا تعارض سابقتها.نلاحظ هنا ظهور علاقات جدلية بين "القديم" و"الجديد"، بين الفكر المسبق الذي يرتبط عضويا بالنسق الخاص من الاقتناعات

---

[1] - هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل.ص 54.

[2]-المصدر نفسه. ص 55، 56.

والاعتقادات، بمعنى ارتباط الفكر بالنسق الضمني والعنصر الجديد الذي يسعى لعزله، أي العنصر الأجنبي الذي يتحدى نسقي الخاص أو أحد عناصره. والأمر كذلك يحدث بالنسبة للعلاقة بين اعتقادي الخاص عندما يفقد قوة إقناعه المضمرة بظهوره كحكم مسبق والعنصر الجديد الذي لا يزال في هذه اللحظة خارج النسق الاعتقادي، لكنه يصبح منذ الآن جزءا منه، وذلك بظهوره كـ" آخر " حقيقي غير اعتقادي السابق، إن هذا يوحي بأن " ثمة علاقة جدلية بين النسق غير الصحيح بمعنى الحكم المسبق المضمر الذي يعزل كحكم مسبق، أو أيضا بين" النسق" الذي أصبح صحيحا بفضل الإعلام التأويلي الجديد الذي يثيره والإعلام التأويلي نفسه، أي بين الإعلام الذي ينخرط في نسق اعتقاداتي واقتناعاتي ويصبح ضمنه الآن بما يسمح بالقول أنه يدخل من خلال معارضته التي يبديها للحكم المسبق المفروض ويظهر من خلال هذا التعارض كآخر غريب و"أجنبي "، الوسيط الشامل لهذه الجدلية هو التساؤل أو الاستفسار".[1]

يضيف غدامير أن رفض اعتقاد ما كحكم مسبق والكشف في الإعلام التأويلي عما هو مختلف حقيقيا هو أن يجعل من "النسق" المضمر "نسقا" صحيحا، ومن " الآخر " غير المماثل " آخر " مماثلا، وهو أن هناك إمكانية .إن التجربة التأويلية تتجلى كعالمية، أساسها التفاهم والحوار كعلاقة جدلية منتجة وخلاّقة بين " الـ نحن " والتراث " وبين " الأنا " و" الآخر " قوامها السؤال والجواب ودليلها المساءلة والتجاوب، استقصاء لا إقصاء وحوار لا تحوير، انطلاقا من الحوار الذي نحن فيه نحاول الاقتراب من عتمة اللغة، نشاط التأويل كما يبتغيه ويرتضيه غدامير هو تلك العتبة التأويلية التي تنفلت من العتمة

---

[1]-هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل ص 55، 56

اللغوية، فهو لا يختزل اللغة إلى مجرد لعبة العبارات وسحرية المنطوقات، اللغة تكتمل معقوليتها وتتكشف قوتها وطاقتها وتتجلى حكمتها في بلاغة الحوار، كل منطوق معبّر وعقل مفكّر وفعل مدبّر إنما يتقيد بالسياق (الحوار)والاستعمال (التطبيق). إننا نفهم ونتفاهم ونتحاور لأن " أشياء " النص أو شيئية الكتابة تنادينا من أعماق وآفاق التراث الذي ننتمي إليه ونسكن فيه بقدر ما يسكن فينا ويتأصل في حفريات ذاكرتنا وأغشية وعينا.إن هذا الحضور المزدوج "النحن " و" التراث " في اللحظة الراهنة تنصهر فيه الآفاق وتتداخل فيه العوالم وتتشابك التصورات، حضور ينم عن مبدأ المشاركة في تشكيل معنى مشترك وبناء حقيقة جامعة وإدارة حوار مؤتلف ومختلف على قاعدة السؤالُ والمساءلة والحوار والتجاوب: قوام الحوار هو السؤال.[1]

يأتي تصور غدامير هذا بخلاف تصور النزعة التاريخانية وهي نزعة ساذجة بنظره لأنها " لا تذهب إلى تفكيرها النهائي تركن غباوة التاريخانية إلى تخميناتها المنهجية وتنسى نهائيا التاريخية التي تعد عنصرا منها الوعي التاريخي الواقعي هو ظاهرة تاريخية، غير أن تحديد الوعي كوعي تاريخي يبقى مجرد كلام مادام الوعي التاريخي غير محقق بمعنى يجب مساءلته وسبر أغواره جذريا .."[2]التساؤل الجذري يقصي فكرة " الموضوع" التاريخي كما هو موصوف كبناء للفكر الموضوعاني، ليس فقط المفهوم وإنما أيضا عبارة" الموضوع التاريخي" يبدوان بالنسبة له غير مستعملين. يقول في هذا الصدد :" ما نريد تعيينه من خلال

---

[1]- المصدر نفسه.ص25

[2]- المصدر نفسه.ص57

هذه العبارة ليس هو " الموضوع " وإنما وحدة الأنا والآخر ".[1]

كل فهم تأويلي بالنسبة لغدامير يبدأ وينتهي ب"الشيء نفسه ".لكن ينبغي من جهة تجنب التجاهل إزاء الدور الذي تؤديه "المسافة الزمنية" التي تقع في البداية والنهاية.وينبغي من جهة أخرى إجراء تجسيد مثالي "للشيء نفسه" كما تفعله التاريخانية الموضوعانية .فمن الواضح أن الموضوع التاريخي بالمعنى الحقيقي والموثوق به للكلمة، ليس "موضوعا "و إنما "وحدة "أحدهما ووحدة الآخر. فهو العلاقة بمعنى "الانتماء" الذي يظهر عبره كل من الحقيقة التاريخية وحقيقة الفهم التاريخي، فهذه الوحدة هي التي تؤسّس عبره كل من الحقيقة التاريخية وحقيقة الفهم التاريخي.فهذه الوحدة هي التي تؤسّس التاريخية الأصلية التي يظهر فيها كل من المعرفة والموضوع التاريخيين بالطريقة التي يحترم فيها انتماؤهما المتبادل.فالموضوع_ يقول غدامير _الذي يأتينا من التاريخ ليس هو فقط الموضوع الذي نحدق إليه من بعيد، وإنما "المركز" الذي يظهر فيه الوجود الفعلي للتاريخ والوجود الفعلي للوعي التاريخي " إذن أن مقتضيات التفكير في الحقيقة التاريخية الخاصة بفن التأويل تأتينا مما يمكن أن اصطلح عليه اسم " مبدأ الإنتاجية التاريخية ".[2]

الفهم إذن هو إجراء وساطة بين الحاضر والماضي وتطوير في الذات كل السلسلة المرتبطة بالمنظورات التي يحضر عبرها الماضي ويتوجه إلينا، إن في علاقة الفهم باللغة الطريقة التي ينفتح فيها الوعي بالإنتاجية التاريخية.[3]

---

[1]- المصدر نفسه.ص57

[2]- هانس جيورج غدامير : فلسفة التأويل.ص 58.

[3]- المصدر نفسه.ص59.

إن التاريخانية لم تعد مجرد عامل مساعد على إرساء حدود الفهم، بل إنها وعلى النقيض من ذلك، ستصبح هي العامل المحرك. وهو ما دفع غدامير إلى إعادة النظر في الأحكام المسبقة وفي التاريخانية بما هما مبدآن للفهم انطلاقا من حدث الفهم يحاول غدامير ممارسة الهرمينوطيقا بدءا من التساؤل التالي : ما الذي يقع لنا وماذا يأخذنا عند إحساسنا بأننا فهمنا ؟إن جهده انصب في النهاية على تثمين دور التاريخ واللغة في أية عملية فهم ممكنة، لقد عمل على تخليص الجهد التاريخي واللغوي من ذلك الدور المؤذي الذي حاولت الابستملوجيا أن تسنده إليه.[1]

استنتاجات

- مع غدامير يتأسّس مفهوم جديد للهرمينوطيقا، فبعدما كانت تستند إلى البعد النفسي لدى شلاير ما خر ودلتاي، ولصيقة بالانطولوجيا في فلسفة هيجر وأسيره الفينومينولوجيا مع ادموند هوسرل صارت أقرب إلى البعد الفلسفي العالمي مع غدامير .

- الهرمينوطيقا تقوم على الحلقات الثلاث:حلقة الفهم، وحلقة التفسير أو التأويل، وحلقة التطبيق.

-نقطة الانطلاق الجوهرية لعملية التأويل هي كون الهرمينوطيقا نشاطا كليا عاما، حيث اتسع مجالها ليشمل كل ظاهرة يتطلب معناها تفسيرا، بغرض تجاوز حالة الاغتراب، إذ أصبح العامل الهرمينوطيقي يتكفل بردم الهوة بين

---

[1]- جان غراندان: المنعرج الهرمنيوطيقي للفينومينولوجيا. ترجمة وتقديم عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص ، 126، 157.

العالم المألوف الذي نعيش فيه والمعنى الغريب الذي يرفض أن يستوعب في آفاق عالمنا.

- ركزت هرمينوطيقا غدامير على كون الحقيقة ليست مطلقة بل هي حقيقة إنسانية نسبية، فلا مجال للنهاية واليقين والاكتمال، الحقيقة نسبية متغيرة باستمرار.

-إن التفسير هو الشكل الخارجي للفهم. فنحن نفسّر أولا وأخيرا ما نكون قد فهمناه.

-الممارسة التأويلية هي تطبيق للنص ضمن الوضع الراهن للشارح أو المفسّر، هذا التطبيق نتيجة تفاعل بين أفق النص والأفق الراهن للمفسّر.

- حرّر غدامير الهرمينوطيقا الفلسفية من الكثير مما لحق بها من الغموض واللبس، فقد أصبحت في تصوره ترتبط بشروط تاريخية لا تفصل بين النص ذاته والشروط التاريخية للمؤوّل أو لواضع النص.

-انبنت عملية التأويل في تصور غدامير على المرتكزات التالية:الكلي والجزئي، الموضوعي والذاتي، الفهم والتفسير، وهما أساسان مرتكزهما الذات والتاريخ، وروحهما المسافة الزمنية والروح النقدية تنصب في النهاية على التساؤل والمساءلة، لتتجلى عندها ماهية التأويل الفلسفي.